



كثيرة هي الأماكن، مناطق وبلدات وأحياء مدنية، التي تختبر على البال عند استذكار بدايات الثورة السورية ثم مراحل تحولها القسري إلى كفاح مسلح قبل انتهائها إلى حرب طاحنة. ومن بينها، يحتل حي جوبر الممتد من شرق العاصمة السورية إلى شمالها الشرقي مكانة خاصة لأسباب كثيرة.

من هذه الأسباب أنه كان معقلًا للحركة الإسلامية، وأنه شهد في 22 أبريل 2011 مظاهرات ضخمة تدفق الناس إليها من بلدات الغوطة ومن أحياء دمشقية عدة بهدف التقدم نحو ساحة العباسين التي لا تبعد عن أطراف جوبر أكثر من 500 متر للاعتصام فيها. وعند وصول المظاهرة إلى محلّة الزيلطاني، فتحت قوات النظام النيران عليها فقتلـت وجـرحت العـشرات واعتـقلـت المـئـات ونـكـلت بـهـمـ.

وما زالت صور الشبان وهم يكتشفون عن صدورهم ليؤكدـوا سـلمـيـتهمـ ثم يتلقـون الرصاصـ ويـقتـلـونـ منـ أـكـثـرـ الصـورـ تعـبـيرـاـ عنـ تلكـ المرـحلةـ.

ومن الأسباب أيضاً أن شباب جوبر حررـواـ حـيـهمـ أـوـاـخـرـ الـعـامـ 2012ـ وـتـحـولـواـ مـنـ يـوـمـهـاـ إـلـىـ خـطـ المـواـجـهـةـ الأـكـثـرـ تـقـدـمـاـ معـ النـظـامـ عـلـىـ تـخـومـ الـعـاصـمـةـ دـمـشـقـ.ـ وـهـمـ لـذـلـكـ تـعـرـضـواـ لـأـعـلـىـ كـثـافـةـ قـصـفـ عـلـىـ رـقـعـةـ جـفـراـفـيـةـ وـاـحـدـةـ،ـ بـالـطـيـرانـ وـالـصـوـارـيخـ وـالـمـدـفعـيـةـ وـالـدـبـابـاتـ.

كما إنـهمـ اـخـتـبـرـواـ ثـانـيـ اـسـتـخـدـامـ مـثـبـتـ لـسـلاـحـ الـكـيـماـويـ (ـفـيـ مـارـسـ وـأـبـرـيلـ 2013ـ)ـ بـعـدـ حـمـصـ بـأـرـبـعـةـ أـشـهـرـ وـقـبـلـ زـملـكاـ وـعـرـبـيـنـ وـأـطـرـافـ الـمعـضـمـيـةـ بـأـرـبـعـةـ أـشـهـرـ أـيـضاـ.

وـمـنـ الـأـسـبـابـ كـذـلـكـ أـنـهـ مـنـ أـوـاـخـرـ الـعـامـ 2013ـ وـحتـىـ الـيـوـمـ،ـ يـتـعـرـضـ حـيـ جـوبـرـ لـلـهـجـومـ تـلـوـ الـأـخـرـ مـنـ قـبـلـ جـيـشـ الـأـسـدـ وـمـقـاتـلـيـ حـزـبـ اللهـ وـالـمـيلـيشـيـاتـ الـعـرـاقـيـةـ.ـ وـرـغـمـ ذـلـكـ،ـ تـرـىـ مـقـاتـلـيهـ تـحـتـ الـأـرـضـ وـفـوـقـهـاـ ثـابـتـينـ فـيـ مـوـاـقـعـهـمـ لـمـ يـتـرـاجـعـواـ وـلـمـ يـسـتـسـلـمـواـ.

وَحِينَ ادْعَى الأَسْد لِلَّيْلَةِ رَأْسَ السَّنَةِ الْمَاضِيَّةِ زِيَارَةَ الْحَيِّ وَتَفَقَّدَ قُوَّاتَهُ فِيهِ بَعْدَ ادْعَائِهَا التَّوْغُّلَ دَاخِلَهُ، أَظْهَرَتِ الصُّورُ فِي الْيَوْمِ التَّالِي أَنَّهُ لَمْ يَتَخَطَّ حَدُودَ الْزِيْلَطَانِيِّ بِاتِّجَاهِ جَوْبَرِ، وَأَنَّ مَنْ صَافَحَهُ بِحَرَارَةِ عَلَى أَسَاسٍ أَنَّهُ مِنْ ضَبَّاطِهِ الْمَرَابِطِينَ عَلَى الْجَبَّةِ كَانَ الْمَسْؤُلُ فِي حَزْبِ اللَّهِ مُحَمَّدُ أَحْمَدُ عَيسَى.

هَكُذا، تختصر سيرة هذا الْحَيِّ جَانِبًاً مِنْ سِيرَةِ الثُّورَةِ السُّورِيَّةِ الْمَنْسِيَّةِ. كَمَا إِنَّهَا تَخْتَصُرُ جَانِبًاً مِنْ صِيرَورَتِهَا التَّرَاجِيَّةِ.

وَلَعِلَّ مَا كَتَبَهُ الصَّاحِفيُّ وَالْمُصَوِّرُ السُّورِيُّ سَعِيدُ الْبَطْلِ فِي مَقَالَهُ الْلَّامِعِ "مَغْمُضُ الْعَيْنَيْنِ بِلَا قَلْقٍ" فِي مَوْقِعِ مَؤْسَسَةِ "بَدَائِيَّاتٍ" بَعْدَ زِيَارَتِهِ لِلْحَيِّ وَقَضَائِهِ يَوْمًا فِيهِ فِي أَكْتُوبَرِ مِنِ الْعَامِ الْمَاضِي يَعْبُرُ أَصْدِقَ وَأَعْقَمَ تَعْبِيرًا عَنِ الْحَيَاةِ الْمَنْسِيَّةِ فِي تِلْكَ الرُّقْعَةِ الصَّغِيرَةِ الْقَابِعَةِ خَلْفَ أَسْوَارِ النَّارِ وَفِضْيَّةِ الْبَشَرِيَّةِ.

يَقُولُ الْبَطْلُ: "أَثْنَاءَ تَصْفِحِي لِلَّنْتِ، وَجَدْتُ صُورَةً لِذَلِكَ الْيَوْمِ مَأْخُوذَةً مِنْ مَدِينَةِ دَمْشَقِ لِلْحَيِّ جَوْبَرِ تَحْتَ الْقَصْفِ... ارْتَجَفْتُ. لَمْ ارْتَجَفْ لِأَنِّي كُنْتُ الْخَارِجَ مِنْ تَحْتِ الدَّمَارِ وَمِنْ كَادِرِ هَذِهِ الصُّورَةِ. رَبِّما ارْتَجَفْتُ لِأَنِّي تَذَكَّرْتُ أَنَّ هَنَالِكَ أَحَدًا مَا فِي الْجَهَةِ الْمَقَابِلَةِ! كُنْتُ قَدْ نَسِيَتْ ذَلِكَ. أَحَدُّ يَرَى وَيَسْمَعُ وَيَفْكُرُ وَيَحْلِمُ وَيَصْوِرُ الْقَذَائِفَ الْمُنْهَمَرَةَ عَلَيْنَا. أَحَدُّ لَهُ مَا لَهُ وَعَلَيْهِ مَا عَلَيْهِ. هُوَ انْعَكَسِيُّ، احْتَمَالِيُّ الْآخِرُ فِي الْوُجُودِ، وَقَدْ أَنْسَانِي إِيَّاهُ انْغَمَاسِيُّ، فَبَيْتَ أَظَنَّ أَنَّنَا وَحْدَنَا فِي هَذَا الْعَالَمِ، وَأَنَّ الشَّيْءَ الْوَحِيدَ الْقَابِعُ فِي الْضَّفَةِ الْأُخْرَى هُوَ الْمَوْتُ، بِقَذِيفَةٍ أَوْ قَنْبَلَةٍ أَوْ رَصَاصَةٍ... تُرِى هُلْ تَتَرَكُ صُورِيُّ، أَنَا الْقَابِعُ فِي الْجَهَةِ الْمَقَابِلَةِ، شَعُورًا كَهَذَا حِينَ يَتَلَفَّهَا سَكَانُ بَيْوَتِكُمْ، رَغْمَ انْغَمَاسِكُمْ فِي هَمُومِكُمْ وَضَوْضَائِكُمْ؟ تُرِى هُلْ أَنْسَاكُمْ ذَلِكَ وَجُودُنَا أَيْضًا؟".

لِلْحَيِّ جَوْبَرِ وَأَهْلِهِ، أَوْ مَنْ تَبَقَّى مِنْهُمْ، السَّلَامُ.

الْعَصْرُ

المصادر: